من نوع قائم بذاته . هذه العملية الاستعمارية ، متى جرى درسها على حقيقتها وتحليلها الى عناصرها ومقوماتها الاساسية ، تكشف لنا الكثير عن طبيعة العلاقات بين اسرائيل والامبريالية العالمية . حتى ان هذا الكشف يناشد المراقب المتجرد عن الهوى دون الالتزام بموقف محدد من النزاع القائم لكي يرى وضع اسرائيل الحاضر وموقعها بالنسبة للمعسكر الامبريالي من زاوية الخدمات التي تسديها دولة المستوطنين الصهيونيين الى الامبريالية العالمية .

وبناء عليه، نجد من الضروري ان يتم التمييز بين بعدين اساسيين ومتلازمين من ابعاد العملية الاستعمارية التي تقع على عاتقها مسؤولية انشاء اسرائيل :

أ ــ الحقيقة التاريخية لتلك العملية ،

ب ــ والارث الذي خلفته العملية ، بحيث يتحدد الدور الذي تلعبه ولعبته اسرائيل في تنفيذ المخطط الاستراتيجي للامبريالية .

ان جوهر القضية يمكن التعبير عنه بصورة ملائمة فيما لو استعرنا ما قاله الدكتور فايز صايغ بهذا الصدد :

« ان العملية الاستعمارية التي انشئت اسرائيل بواسطتها لم تصل الى نهايتها لحظة اعلان قيام الدولة . بل على العكس من ذلك ، اذ تركت هذه العملية طابعها على كل من طابع الدولة التي افرزتها ، الى جانب طبيعتها الجوهرية ومسلكها . فالعملية هي اكثر من حقيقة تاريخية : انها ارث تؤلف الناحية الاستعمارية منه في ظل المناخ السائد في عالم اليوم عائقا اكثر مما تؤلف حسنة »(١) .

١ ــ التكوين : ١٨٩٧ ــ ١٩١٧

« ان امانينا تشير الى فلسطين مثلما تشير البوصلة الى الشمال . ولذا ينبغي علينا الاتجاه صوب تلك الدول التي تقع فلسطين تحت نفوذها » .

ماكس نوردو

هناك وصف صحيح للحركة الصهيونية ، خلال العقدين الفاصلين بين اطلاق برنامج بازل رسميا (١٨٩٧) وصدور وعد بلفور البريطاني (١٩١٧) ، يرى فيها حركة « تبحث عن اعتراف دولي » . لقد اتخذ هذا البحث مختلف الاشكال ، ومر عبر العديد من التحولات : من حيث التشديد والاتجاه . لكنه بقي هو هو في جوهره ، اي السعي لاقامة تحالف مع تلك الدولة التي تقع فلسطين تحت سيطرتها او من المتوقع لفلسطين ان تخضع لنفوذها متى اصبح تقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق نفوذ بمثابة الامر الواقع .

يتوجه هرتزل في كراس « **الدولة اليهودية** » (١٨٩٦) الى القارىء الاوروبي العادي ويخاطب الذهنية الامبريالية لدى الجماهير عند نهاية القرن الفائت، معتبرا ان الاستيلاء على فلسطين وغزوها يمثل امتدادا لسياسة اوروبا في الخارج . فهو يعلن ابان ذروة العصر الامبريالي باننا « سوف نؤلف هناك جزءا من المتراس الاوروبي ضد اسيا ، ومركزا اماميا للمدنية بوجه البربرية » .(٢)

ثم يكرس السنوات الاخيرة من حياته الصهيونية لكي يطرق جميع الاتجاهات والاحتمالات الممكنة ويجرب نيل الحظوة لدى اربابها : من السلطان العثماني وحلفائه الالمان الى الحكومة البريطانية وحكام روسيا القيصرية . ان قصة هذه الاتجاهات وما رافقها من تحولات وتبديلات لا يمكن سردها الان بكافة تفاصيلها . وربما يفي بغرض هذه المقالة ان نختار بعض العينات التي تمثل على ذلك اصدق تمثيل :

أ ــ **المحمية الالمانية** : حاول هرتزل توجيه الحركة الصهيونية صوب المانيا الامبراطورية.